ظاهرة الاشتراك اللفظي وتأويل النص القرآني

أ/ بداوي محمد
قسم اللغة العربية
جامعة سعيدة

الملخص:

اللغة هي الأداة الأولى الموصلة إلى فهم القرآن الكريم . والألفاظ هي مفتاح فهم هذه اللغة. ولذلك كانت الألفاظ القرآنية محل درس وعناية منذ نزول القرآن.

ومن هنا كانت الدراسة الدلالية ذات أهمية في جهود المفسرين. وكان طبيعيا ـــ والعربية لسان القرآن ـــ أن توضع قواعد التفسير بعد استقراء الأساليب العربية، وإدراك لطبيعتها في الخطاب، ومعرفة ما تؤديه الألفاظ والتراكيب من مدلولات، وذلك بعد أن كان التفسير في مرحلته الأولى مبنيا على السليقة العربية، وفهم من نزل الكتاب بلسانهم في ظل البيان النبوي.

و مما يرتبط بتحليل النص القرآني وفهمه عند المفسرين ما تردد من الألفاظ المحتملة التي تعددت معانيها بما يعرف بالمشترك اللفظي. فأصبحت الكلمة تمتاز بطاقة إيحائية هائلة مما يدعو المفسر إلى بذل جهد تأويلي يبني بمقتضاه منطقا للمعنى في إطار من التفكير الخالص ينتهي باختياره لمعنى دون آخر.

إن تعامل المفسّر مع المعنى في هذا الشأن يسير ضمن الجدلية القائمة على التفاعل بين الديني /الشرعي، واللغوي /المعياري الموصول بكلام العرب، والسياقي/التركيبي الموصول بخصوصية النظم القرآني لفظا ومعنى.

من هذا المنطلق يرمي البحث إلى إبراز الأثر الدلالي للمشترك اللفظي في فهم النص القرآني من خلال منهج المفسرين في تحليل الخطاب من آليات التأويل الدلالي.

مفهوم المشترك اللفظي ووقوعه في القرآن:

يراد بالمشترك اللفظي عند المفسرين أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى، يقول الجصاص في تعليقه على لفظ (السفيه): "..لأنه قد ثبت أن لفظ السفيه لفظ مشترك، ينطوي تحته معان مختلفة" [1] . وقد تكون المعاني المختلفة باستعمال الشرع لا اللغة "فالإحصان في الشّرع اسم يقع على معان مختلفة غير ما كان لها في اللغة"[2] .

كما نجدهم يختلفون في تسميته بين مشترك لفظي باستعمال حقيقي، أو حقيقة ومجاز، يقول الألوسي في معرض تفسيره لمعاني النكاح:"...فمدّعي الاشتراك يقول تحقّق، والأصل الحقيقة، والثاني يقول كونه مجازا في أحدهما حقيقة في الآخر أولى من الاشتراك"[3] .

و قد اختلف الدارسون قديما وحديثا حول وقوع المشترك اللفظي في القرآن بين منكر ومضيّق، ومتوسّع لدائرته. فقد أنكره بعض العلماء لأنه يعيق الفصاحة بما يثيره من غموض وينافي الحكمة في البيان ولذلك وجب تنزيه لغة القرآن منه[4].

ومن الذين جوّزوا وقوعه في النصوص القرآنية، ضيّق بعضهم من دائرته، نلفي ذلك واضحا عند إبراهيم أنيس، يقول :"وأما ما وقع في القرآن من ذلك المشترك فقليل جدا، وجلّه إن لم يكن كلّه مما تلحظ فيه الصلة المجازية ،كالعين الباصرة والعيون الأرض، ويندر أن تصادفنا كلمة مثل "أمة" التي استعملت في القرآن بمعنى جماعة من الناس. وبمعنى الحين في قوله تعالى *(و ادّكر بعد أمّة)*[5] ، وبمعنى الدين في قوله تعالى *(إنّا وجدنا آباءنا على أمّة)*[6] .

بينما نجد من المحدثين من وسّع من دائرته في القرآن، سواء كانت المعاني متقاربة أو متباعدة[7] . ويلاحظ في أدلتهم جميعا أن الاختلاف مردّه إلى مفهوم الاشتراك اللفظي، وتعريفه اصطلاحي.

إن أدنى تأمل في أقوال المفسرين حول الظاهرة يهدي إلى أنهم يقرون بوقوع المشترك اللفظي في القرآن، ويتضح ذلك من حديثهم عن عدد من الألفاظ التي تضمنتها تفاسيرهم. وهم تارة يصرحون بأنها من المشترك اللفظي، أو يفهم من

كلامهم أنهم يعدّونها منه. يقول القرطبي في تعليقه على قوله تعالى: *(ملك يوم الدين)*[8] : " الدين الجزاء عن الأعمال والحساب بها، وقيل القضاء...والدين الطاعة، ثم قال: " فعلى هذا هو لفظ مشترك"[9].

وتوسّع الطبري في مفهوم الاشتراك ليشمل أقسام القول: "فإن قال قائل:كيف يجوز أن يكون حرف واحد شاملا الدلالة على معان كثيرة، قيل كما جاز أن تكون كلمة واحدة تشتمل على معان كثيرة مختلفة، كقولهم للجماعة من الناس:أمة، وللحين من الزمان:أمة... مما يكون في الكلام بلفظ واحد، وهو مشتمل على معان كثيرة"[10] .

يلاحظ مما سبق ذكره، أن مفهوم المشترك اللفظي عند المفسرين يعّد امتدادا لما ورد عند اللغويين والأصوليين كالاشتراك بين حقيقتين أو حقيقة ومجاز.

المعاني المتعددة أو"وجوه"المشترك اللفظي في القرآن:

إنّ مصطلح"الوجوه" هي المعاني المتعددة للمشترك اللفظي في القرآن، فكل معنى من المعاني هو وجه من الوجوه التي يظهر بها المدخل بلفظه. يقول ابن الجوزي في معنى الوجوه: "واعلم أن معنى الوجوه والنظائر أن تكون الكلمة الواحدة ذكرت في مواضع من القرآن على لفظ واحد، وحركة واحدة، وأريد بكل مكان معنى غير الآخر ، فلفظ كل كلمة ذكرت في موضع نظير للفظ الكلمة المذكورة في الموضع الآخر، وتفسير كل كلمة بمعنى غير معنى الأخرى هو الوجوه. فإذن النظائر: اسم للألفاظ، والوجوه: اسم للمعاني. فهذا الأصل في وضع كتب الوجوه والنظائر"[11].

ويستفاد من هذا أن الاهتمام بالتعدد الدلالي عند المفسرين قد تطور فيما بد إلى فرع كامل من فروع الدراسات القرآنية ذات الصلة بالتفسير يشار إليها بـــ"الوجوه والنظائر". كما اعتبر بعض المفسرين هذا التعدّد الدلالي في الخطاب القرآني قيمة إعجازية حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجها، وأكثر وأقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر[12]. ويروى أنه جاء عن أبي الدرداء:

"لا يفقه الرجل حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة، أي اللفظ الواحد يحتمل معاني متعددة، ولا يقتصر به على ذلك المعنى، بل يعلم أنه يصلح لهذا وذاك".[13]

وفي عرضهم للوجوه المختلفة للفظ الواحد، يربط المفسرون تعدد المعنى بالأصول اللغوية، وبالعوامل التي أدت إلى الاشتراك في اللفظ، والاحتمال في التأويل، ومن شأنه أن يحدد أنماطا من العلاقات بين المعاني المختلفة تظهر من خلال النماذج التالية :

(أمّة): يدل اللفظ في القرآن على وجوه مختلفة، عدّدها القرطبي: "والأمة اسم مشترك ،يقال على ثمانية أوجه:

ـــ فالأمّة: تكون للجماعة، كقوله تعالى *(وجد عليه أمّة من الناس)* [14]

ـــ و الأمّة: الرجل الجامع للخير الذي يقتدى به، كقوله تعالى *(إن إبراهيم كان أمّة)* [15]

ـــ و الأمّة: الدّين والملّة، كقوله تعالى *(إنّا وجدنا آباءنا على أمّة)* [16]

ـــ و الأمّة: الحين والزمان، كقوله تعالى *(و لئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمّة)* [17]

ـــ و الأمّة : الرّجل المنفرد بدينه وحده، لا يشركه فيه أحد. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمّة وحده"[18].

تقترن البنية الصوتية(أمّة) بمفهوم الجماعة، وقد تطوّر مدلول اللّفظ في ظل المعنى العام، يقول ابن قتيبة : "أصل الأمّة: الصنف من الناس والجماعة، ثم تصير الأمّة: الحين. ثم تصير الأمّة: الإمام والرباني.." [19]. وللمدخل المعجمي(أمة) القدرة على اتخاذ دلالات متنوعة بالاستعمالات المختلفة، وعلى البقاء في اللّغة مع هذه الدّلالات[20].

كما وسّع الاستعمال الفعلي للكلام في البيئة اللغوية مجاله الدلالي ليشمل معنى الدّين، يقال: فلان لا أمة له، أي لا دين له، قال النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وهل يأثمن ذو أمّة وهو طائع[21]

أي ذو دين[22]

ويشير المفسّرون إلى تأويلين محتملين للفظ (أمّة) في قوله تعالى ـــ*(إن إبراهيم كان أمّة)*ـــ[23] قيل: معلّم الخير أي إمام، وقيل أمّة بمعنى مؤمنا وحده[24].

(مولى): فقد تعدّد معناه بالاتّساع من أصل عام، يقول القرطبي: "اعلم أن المولى مشترك يطلق على وجوه، فيسمى المعتق مولى، والمعتق مولى، ويقال المولى الأسفل، والمولى الأعلى، وسمي الناصر مولى، وابن العم مولى، والجار مولى"[25].

ويستعمل اللّفظ في كل معنى على البدل، قال النابغة الجعدي:

موالي حلف لا موالي قرابة ولكن قطينا يسألون الأتاويا[26]

أي هم حلفاء لا أبناء عم.

ويردّ المفسرون معاني (مولى) إلى مفهوم عام هو القرب[27]. و تختلف درجات القرب وأسبابه، لأن المحالف يلي أمره بعقد اليمين، والمولى ابن العم، لأنه يليه بالنصرة والقرابة التي بينهما، والمولى الولي، لأنه يلي بالنصرة[28] .

وفي قوله تعالى: *(ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان)*[29] يحيل اللّفظ (مولى) على دلالات محتملة: الموالي:العصبة، والموالي: الورثة، والموالي:المعتق، والموالي: المعتق[30] .

يحرص المفسرون على اشتراكه لا عمومه، يقول الجصّاص: " فهو اسم مشترك لا يصح اعتبار عمومه، ولذلك قال أصحابنا فيمن أوصى لمواليه، وله موال أعلى وأسفل أن الوصية باطلة؛ لامتناع دخولهما تحت لفظ واحد في حالة واحدة، وليس أحدهما أولى بالآخر، فبطلت الوصية[31].

و يمتدّ أثرها الفقهي إلى اختلاف الفقهاء في عدّ المولى المعتق والمعتق في العصبة الوارثة فهما من الموالي في معنى المولى[32].

يلاحظ، إذن، أنّ هذه المعاني كلّها محتملة عند المفسّرين في استعمال ذلك اللفظ، والتطوّر الدلالي يلحق بالمعنى العام، فيصرفه إلى معان مختلفة، تشترك في احتوائها على شيء من ذلك المعنى العام الشامل، وتختلف فيما بينها في معنى

خاص[33]. وهكذا يبدو التّماس الدلالي بين المعاني السابقة وما يجمعها من معنى عام(القرب) وما على المفسّر إلاّ أن يحسم هذا التشعّب بترجيحه لفهم دون آخر.

(الدّين): هو لفظ مشترك عند المفسرين تعددت دلالاته في القرآن:

ـــ فالدّين: الملة أو الشريعة

ـــ و الدّين: السلطان أو الملك

ـــ و الدّين: الجزاء والحساب[34]

يقول الطبري:"وللدين معان في كلام العرب غير الجزاء والحساب...وأصل الدّين الطاعة[35]

و لذلك، فاللّفظ يحيل على دلالات محتملة في تفسير قوله تعالى *(فما يكذّبك بالدّين)*[36] قيل الدّين: الطاعة، والدّين: بمعنى الملّة أو الشريعة، والدّين: الحساب والجزاء[37]. فالقراءات الدلالية المتعددة محتملة، دلّ عليها اللفظ بالاستعمال المجازي الشّائع في هذه المعاني. والمجاز بشيوعه يعرّض المعنى للتوسّع الدائم بتعميمات عبر حقول دلالية مختلفة، تصبح متداولة موروثة، لا وجود لأثر جمالي في استعمال المجاز[38].

(آية): يحيل اللفظ في بيئته اللغوية على مفهوم العلامة. ويطلق على الجماعة، "يقال:خرج القوم بآيتهم أي بجماعتهم"[39]. وبالتأمل في تفسير لفظ(آية) نجد أنّ اللّفظ قد اعتراه نقل اصطلاحي، فأصبح يدلّ على الجزء من القرآن، واحتمل المعنيين:العلامة والجزء من القرآن في تأويل قوله تعالى: *(سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية)*[40] قيل: العلامات أو الدلائل، وقيل:آية بمعنى الجزء من القرآن المتلو في الكتب المترلة الشّاهدة على صحة دين الإسلام[41]، وفي قوله تعالى: *(سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بيّنات)*[42] ، فهي بمعنى الجزء المتلو من القرآن فتكون واضحات الدلالة على أحكامها، أو الآيات بمعنى العلامات والدلائل الكونية الواضحات الدلالة على وحدانية الله.[43]

ويلاحظ هنا، أن المعنى الاصطلاحي في لفظ (آية)ارتبط بالقراءة المعجمية علامة أو جماعة، فلا يعدو أن يكون مجازا بالنقل، يتبادر معناه إلى الذهن باستعماله الاصطلاحي فاحتمل اللفظ المعنيين اللغوي والاصطلاحي. وقد لاحظ بعض المحدثين أن تعدد الأصل ، أو اختلاف ملمحه قد يكون سببا في تعدد المعنى[44]

منهج المفسرين في تحديد دلالة المشترك اللفظي :

سلك المفسرون منهجا في ترجيح أحد محتملات اللفظ لإسناد قراءة دلالية معينة للوحدة المعجمية الملتبسة دلاليا ، "ولابد في إزالة الغموض فيه(المشترك)، وتحديد أحد المعنيين أو المعاني التي وضع لها اللفظ من اجتهاد عن طريق العودة إلى مجموعة النصوص، وتحديد مدلولات اللفظ عند العرب، مع الاستعانة بعرف الشّارع، ومقاصد الشّريعة"[45] .

ومن ههنا، يعتمد التأويل الدّلالي عند المفسّرين على:

1 ــ المعنى اللّغوي: و له أثر في تحديد دلالة المشترك بمعرفة أوضاع اللغة، واستعمالات اللفظ في بيئته اللغوية. ومن أمثلة ذلك تأويل لفظ (الدّين)، إذ يعرض المفسرون استعمالاته اللغوية[46]. فـــ"من إطلاقاته على معنى الجزاء قول الشاعر:

واعلم يقينا أن ملكك زائل واعلم بأن كما تدين تدان[47]

وورد بمعنى الطّاعة في قولعمرو بن كلثوم:

وأيّام لنا غرّ طوال عصينا الملك فيها أن ندينا[48]

وبمعنى الملك والسلطان،ومنه قول زهير:

لئن حللت بجو في بني أسد في دين عمرو وحالت بيننا فدك[49]

وبهذه الاستعمالات في البيئة اللغوية يهتدي المفسّر إلى تخصيص قراءة دلالية . وعلى قدر ثراء المعنى اللغوي للكلمة تتعدّد مسالك الاستقصاء، ويكون للمعنى اللغوي أثر في توجيه الفهم. والمفسّر حينئذ يتعامل مع المعنى اللغوي تعاملا توظيفيا انتقائيا يرجّحه أو يثبته إذا ما شاكل فهمه للآية، وينفيه إذا ما شذّ عن ذلك

الفهم[50]. يرى الطبري في تأويل قوله تعالى (فما يكذّبك بعد بالدين)[51]أن "أولى القولين بالصواب الدّين في هذا الموضع الجزاء بالحساب، وذلك أنّ أحد معاني الدّين في كلام العرب الجزاء والحساب، ومنه قولهم:كما تدين تدان"[52] .

و من ههنا، فقد بنى المفسّر اختياره على الحجة اللغوية تتمثّل في تفسير لغوي لكلمة الدين، وعلى شواهد شعرية. ويتنزّل كل ذلك في إطار توظيف المفسّر لكلام العرب الذي جرت عليه ألفاظ القرآن ومعانيه.

ولهذا لم يتحرّج المفسرون من الرجوع إلى الشعر الجاهلي للاستشهاد به على المعنى يذهبون إليه في فهم كلام الله، لأن" الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا ذلك منه"[53] .

2 ــ السياق: ينهض احتجاج المفسر لاختياره التأويلي على السياق لما له من أثر في تحديد دلالة المشترك اللفظي؛ "لأن كلام العرب يصّحح بعضه بعضا، ويرتبط أوله بآخره، ولا يعرف معنى الخطاب منه إلاّ باستيفائه، واستكمال جميع حروفه.. فلا يعرف المعنى المقصود إلاّ بما يتقدّم الحرف، ويتأخر بعده مما يوضّح تأويله"[54]. والمعنى عند فيرث لا ينكشف إلاّ من خلال تسييق الوحدة اللغوية ، ويتطلب تحليلا للسياقات المختلفة، والمواقف التي ترد فيها حتى ما كان منها غيرلغوي[55]

ولذلك وجدنا المفسّر يراعي توزيع الوحدة اللغوية بحصر سياقاتها المختلفة في القرآن، ومن شأنه أن يحدّد معانيها المتعدّدة، كما يتيح له تحديد معناها العام، والعلاقات المختلفة، ويختار تأويلا ملائما بعد فحص النسيج اللغوي وما يحتويه من سمات تركيبية أو دلالية للعناصر اللغوية ، نحو لفظ (أمّة) ومعانيها المختلفة[56].

و يحرص المفسرون على الدّقة في تقصّي الحقائق اللغوية، فهم يجمعون بين البحث المعجمي والسياقي ــ من خلال الاستعمال اللغوي والقرآني ــ وأفضى بهم التأمّل النّافذ في جوهر العلائق بين المعاني إلى تحديد علاقة المعنى النّواة والمعاني السياقية. وهو ما جعل التأويل الدلالي يرفع كثيرا من الالتباس.

يقول الفاسي الفهري:" يفترض "ميلر" النواة وقواعد الحشو التأويلية، يمثّلان أملا في فهم عمليات رفع الالتباس. وهذه مقاربة تفضل تلك التي تعتبر أن أي لفظ مشترك متعدد المعاني، وأنّ ليس هناك مبادئ عامة تربط بين المعاني المختلفة"[57].

ويتّسع السياق ليشمل السياق اللّغوي الخاص والعام، وسياق المقام. وهي ضرورية لتخصيص قراءة دلالية من قراءات محتملة في سياق واحد؛ لأن"اختيار مفهوم ملائم من بين لائحة المفاهيم التي يعبّر عنها المشترك يتطلب مجهودا معرفيا خاصا، ويتسبب أحيانا في أخطاء، ويقع رفع الالتباس عن طريق السياق اللغوي المباشر ،أو السياق الخطابي، أو الوضع الذي يحدث فيه التواصل، أي كل المصادر متوفرة للرفع اللّبس، وهناك عمليات معرفية ينظر فيها السياق اللغوي للكلمة، فترفع بعض اللبس بواسطة القيود التفريعية أو السياقية"[58].

أـــ السياق اللّغوي الخاص: إن المداخل المعجمية لا تأخذ أبعادها الدلالية إلاّ ضمن محيطها الدّلالي -الذي يحدّد القيمة الدلالية للعنصر اللساني تحديدا دقيقا، يخضع لعلاقات تساهم في التنبؤ بالتأويلات السياقية للوحدات اللغوية. فالمعنى كما يصلنا في الخطاب يخضع لعلاقات الكلمة مع غيرها من الكلمات الموجودة ضمن السياق ذاته، وتحدّد بنية النظام الألسني هذه العلاقات[59].

ومن أثر السياق اللّغوي الخاص في توجيه دلالة المشترك اللفظي عند المفسرين ما جاء عن ابن جرير في تفسير قوله تعالى *(واللّيل إذا عسعس والصبح إذا تنفّس)*[60] مرجّحا دلالة عسعس بمعنى أدبر، و مستبعدا معنى أقبل، قال: " لقوله تعالى*(والصبح إذا تنفّس)* فأقسم الله بالليل مدبرا، والنهار مقبلا"[61]. و يكون المفسّر قد أدرك علاقة التوارد بين الوحدات اللغوية، وتجاورها من خلال لفظ (عسعس) مع (الليل)، يقابلها(تنفس) مع (الصبح). والمحيط الدلالي بذلك اختار مدلولا واحدا.

ويلفت انتباهنا في السياق اللّغوي الخاص ما قد ينتج عن عملية الاستبدال بين الكلمات في العلاقة الرأسية من تغيير في الدلالة السياقية للكلمات غير المستبدلة،

والتي تربطها بالموقع علاقة أفقية في التركيب. ويبدو أن ابن قتيبة قد وعى هذه العلة في حديثه عن المعاني المختلفة لفعل (قضى) بسبب الاستبدال في موقع المفعول، قال: "أصل قضى: حتم، كقوله تعالى *(فيمسك التي قضى عليها الموت)*[62] ثم يصير الحتم بمعان:

كقوله تعالى *(وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه)*[63] أي أمر؛ لأنه لّما أمر حتم الأمر.

وقوله تعالى *(وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب)*[64] أي أعلمناهم.

وقوله تعالى *(فقضاهن سبع سماوات)*[65] أي صنعهن.

وقوله تعالى *(فاقض ما أنت قاض)*[66] أي فاصنع ما أنت صانع[67].

ب ــ السياق اللّغوي العام : ومن عناصره تفسير القرآن بالقرآن ، وهو المحيط الدلالي العام، فما أجمل في مكان يفسّر في مكان آخر، نحو تأويل لفظ (عسعس) بمعنى (أقبل) في قوله تعالى *(والليل إذا عسعس)*[68] يقول ابن كثير: "والمراد به إذا أقبل، وإن كان يصحّ الإدبار، لكن الإقبال هنا أنسب، كأنه أقسم باللّيل وظلامه إذا أقبل، والفجر بضيائه إذا أشرق، كما في قوله تعالى *(واللّيل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى)*[69] . ويبدو المفسّر معولا على "التناص" l'intertextualité[70] في كشف ما بين المعنى والمعنى من علاقات تتفاوت صراحة أو ضمنا وائتلافا أو اختلافا على مستوى الآيات.

ج ــ سياق المقام: وهو الإطار الذي يحيط بالإنتاج الفعلي للكلام، أو الموقف الخارجي، أوحال الخطاب من ظروف وملابسات. فالمدخل المعجمي يتغيّر مدلوله بتغيير سياق المقام الذي يرد فيه، والقول المجتثّ عن مقامه غالبا ما سيتعصي عن التأويل؛ لأن في صلب استعمال اللغة توجد علاقة جدلية دائمة بين الكلام والمقام الذي يسمح بتأويل وحيد ــ غالبا ــ للمعنى فضلا عن أنه ضرب من الاقتصاد اللغوي[71].

ومن عناصره عند المفسّر أسباب النزول، ومعرفة عادات العرب، ومقاصد الشريعة. فالمقام عند المفسرين يبيّن وجه الحكمة الباعثة على تشريع حكم، ولذلك

يرى المفسّرون أنه لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصّتها، وبيان نزولها[72].

و من أمثلته في توجيه دلالة المشترك، تأويل لفظ (المحيض) بمعنى موضع الحيض[73] في قوله تعالى *(و يسألونك عن الحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض)*[74]فقد روي في سبب نزولها أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها، و لم يجامعوها في البيوت(لم يجتمعوا معها في بيت واحد)، فسأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله : *(يسألونك عن المحيض)* فقال: "اصنعوا كل شيء إلاّ النكاح"[75].

واللّفظ قد يفيد أكثر من معنى بسبب قابليته لأن يفهم على أكثر من نحو، فقد يشترك اللفظ بين معان لغوية، وشرعية، وعرفية، فيكون حقيقة لغوية بالوضع، أو حقيقة شرعية أو عرفية بعرف الاستعمال. وحينئذ يعقد المفسّر تفسيره بين هذه الحدود للكشف عن القصد. يلخّص الزركشي قانون الترجيح بين هذه الاستعمالات: " كل لفظ احتمل معنيين فصاعدا...فإن كان أحد المعنيين أظهر وجب الحمل عليه إلاّ أن يقوم الدليل على أنّ المراد هو الخفي، وإن استويا والاستعمال فيهما حقيقة، لكن في أحدهما حقيقة لغوية أو عرفية، وفي الآخر شرعية، فالحمل على الشرعية أولى إلاّ أن يدل دليل على إرادة اللغوية، ولو كلن في أحدهما عرفية والآخر لغوية، فالحمل على العرفية أولى، ولو دار بين الشرعية والعرفية، فالشرعية أولى؛ لأن الشرع ألزم"[76].

إن لفظ (الصلاة) يتعيّن فيه المعنى الشرعي للعبادة في قوله تعالى *(وأقيموا الصّلاة)* [77] ، وتصرفه قرينة لفظية إلى معناه اللغوي في قوله تعالى *(أن الله وملائكته يصلّون على النبي يأيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما)*[78]بمعنى الرحمة والدعاء[79].

وإذا كان الترجيح بين مختلف الاستعمالات يستند إلى قرينة، فإن المفسر يلّون تفسيره بفهمه الشخصي من خلال اختيار تأويل معين يراه مناسبا أدّاه إليه

اجتهاده؛" لأن الأنظار تختلف في تقويم هذه القرينة، أو القرائن المرجّحة لمعنى على آخر، فما يكون صالحا للترجيح عند فريق، قد لا يكون صالحا عند آخرين. وكثيرا ما ينتج عن ذلك اتجاه كلّ إلى معنى غير المعنى الذي اتجه إليه غيره، بناء على تفاوت الأنظار فيما يصلح للترجيح"[80]. ولذلك تعدّدت التأويلات، وكان له أثر بارز في توجيه المعنى واختلاف الأحكام.

يتبيّن مما سبق ذكره أنّ المفسّرين في معالجتهم لقضية المشترك اللفظي في النصوص القرآنية، قد التفتوا إلى الأصول اللغوية، وعلّلوا واقعها اللغوي بتنوع الاستعمال بين المعنى: اللّغوي والشرعي. و بفحصهم النسيج اللغوي، والاستعانة بالسياق اهتدى المفسرون إلى الكشف عن العلاقة الدلالية بين قراءة معجمية النواة وقراءة سياقية. ومن شأن السياق أن يزيل كثيرا من الالتباس الدلالي للوحدة اللغوية، فيترجح معنى خاص، أو يبقى المعنيان محتملين لاختلاف القرائن، وتقديرها عند كل مفسّر. وهو ما يدل على أنّ المفسّر لغوي في تعامله مع النص القرآني.

1ــ الجصاص، أحكام القرآن،تحقيق محمد الصالح قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1405هـ، 215/2

2ــ المصدر نفسه،93/3

3ــ الألوسي، روح المعاني،دار الفكر، بيروت،3،384/1994

4ــ منهم نورالدين المنجد،في كتابه الاشتراك اللفظي في القرآن بين النظرية والتطبيق، دار الفكر ،دمشق،1999،ص272

5ــ يوسف/45

6ــ الزخرف/23. وينظر دلالة الألفاظ، ص215

7ــمنهم سالم مكرم،ينظر . المشترك اللفظي في الحقل القرآني،ط1،مؤسسة الرسالة،بيروت،1996،ص16ــ17

8ــالفاتحة/4

9ــ القرطبي ،الجامع لأحكام القرآن،ط5،دار الكتب العلمية،بيروت،1،101/1996

10ــ الطبري،جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دط، دار الفكر، بيروت،1405هـ،94/1

11ـ ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر،تحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت،1987 ، ص49

12ـ ينظر السيوطي، الإتقان في علوم القرآن،دار الفكر،بيروت،14/1

13ـ الزركشي ،البرهان في علوم القرآن، ط3، دار الفكر للطباعة والنشر،2،108/1980

14ـ القصص/23

15ـ النحل/120

16ـ الزخرف23

17ـ هود/8

18ـ القرطبي،مصدر سابق ،9/9

19ـ ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن،شرح السيد أحمد صقر، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت،1981،ص445

20ـ ينظر: فندريس، اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،1950،ص254

21ـ ديوان النابغة، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت، 1986، ص81

22ـ ينظر ابن قتيبة، مصدر سابق،ص446

23ـ النحل/120

24ـ ينظر الطبري، مصدر سابق، 190ـ191

25ـ القرطبي، مصدر سابق،109/5

26ـ البيت له في اللسان،409/15

27ـ ينظر ابن العربي، أحكام القرآن،تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت،1،413/1972

28ـ ينظر الطبري، مصدر سابق، 408/15ـ409

29ـ النساء/33

30ـ ينظر: ابن كثير،تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس للطباعة والنشر،بيروت،490/1. والجصاص، مصدر سابق،144/3

31ـ الجصاص، مصدر سابق،143/3

32ـ ينظر ابن العربي، مصدر سابق،414/1

33ـينظر ابراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ط9، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1995، ص197ـ198

34ـ ينظر الطبري ،مصدر سابق،94/1 . والقرطبي،مصدر سابق،101/1

35ـ الطبري، نفسه،68/1. وينظر: ابن فارس،معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبدالسلام هارون، دط، دار الجيل، بيروت، دت،(دين)319/2

36ـ التين/7

37ـ ينظر الطبري، مصدر سابق،642/12

38ـ الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية، ط1، منشورات عويدات، بيروت،1986،ص378

39ـ ابن منظور، اللسان، (آية)،61/14

40ـ البقرة/211

41ـ ينظر الزمخشري، الكشاف،دار المعرفة،بيروت،353/1

42ـ النور/1

43ـ الصابوني، روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، ط4، مكتبة الرحاب، الجزائر،2،1990/8

44ـ ينظر: توفيق شاهين، المشترك اللغوي نظرية وتطبيقا، ط1، مطبعة الدعوة الإسلامية،القاهرة،1980، ص52ـ53

45ـ أديب صالح، تفسير النصوص في الفقه الإسلامي،ط3،المكتب الإسلامي،دمشق،1،1984/83

46ـ القرطبي، مصدر سابق،101/1

47ـ البيت ليزيد بن الصعق الكلابي، ويروى(وأيقن)، ينظر المبرد ،الكامل في اللغة والأدب، مؤسسة المعارف،بيروت،192/1. وينسب إلى خويلد بن نوفل الكلابي، ينظراللسان169/13

48ـ البيت له في معلقته، ينظر مفيد قميحة، شرح المعلقات العشر، دار ومكتبة الهلال، بيروت،1994،ص238. ويروى(كراما)ينظر اللسان،169/13

49ـ ينظر ديوانه،تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت،ص51

50ـ أحمد الودرني، أصول النظرية النقدية القديمة من خلال قضية اللفظ والمعنى في خطاب التفسير، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة،2005، بيروت، ص76

51ـ التين/7

52ـ الطبري، مصدر سابق،642/12

53ـ ينسب إلى ابن عباس، ينظر: الذهبي، التفسير والمفسرون، ط4، مكتبة وهبة، القاهرة، 1988، 76/1

54ـابن الأنباري، الأضداد، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، دط، المكتبة العصرية، بيروت،1991، ص2

55ـ ينظر مختار عمر، علم الدلالة، ط5، دار عالم الكتب،القاهرة،1998،ص68ـ69

56ـ ينظر معاني(أمة)في هذه الدراسة.

57ـالفاسي الفهري،مرجع سابق،ص373.

58ـ نفسه، ص372.

59ـ بيار جيرو، علم الدلالة، ترجمة أنطوان أبو زيد، ط1، منشورات عويدات، بيروت،1986، ص29.

60ـ التكوير/17ـ18.

61ـ الطبري، مصدر سابق،469/12.

62ـ الزمر/42

63ـ الإسراء/23

64ـ الإسراء/4

65ـ فصلت/12

66ـ طه/72

67ـ ابن قتيبة، مصدرسابق، ص441. وينظر: أحمد عبد السلام، التعامل النحوي الدلالي في التراكيب العربية، مجلة الدعوة الإسلامية، طرابلس، العدد9، 1992، ص396ـ397.

68ـ التكوير/17

69ـ الليل/1ـ2

70ـ أحمد الودرني،مرجع سابق،ص67

71ـ ينظر مارتيني، مبادئ في اللسانيات العامة، ترجمة سعدي زبير، دار الآفاق، الجزائر،ص37

72ـ ينظر الذهبي، التفسير والمفسرون، 1/255ـ260

73ـ الطبري، مصدر سابق،382/2

74ـ البقرة/222

75ـالطبري، نفسه،383/2

76ـ الزركشي، البرهان،167/2

77ـ البقرة/110

78ـ الأحزاب/56

79ـ ينظر أديب صالح، تفسير النصوص،2/ 139

80ـ المرجع نفسه،139/2